مَنْ يثيـر مَنْ ؟! "مؤسسة راند مثال"

بقلم د. صلاح الدين النكدلي

يجسد العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي في هذه المرحلة فريقان :

الأول : أصحاب القرار السياسي والاقتصادي والثقافي في الغرب ؛ الذين يسعون إلى تحقيق مصالحهم في العالم الإسلامي بعنف وضراوة .

الثاني : حركات وتيارات شعبية ، متعددة البواعث والفكر ، تتبنى تحرير العالم الإسلامي من التبعية ، والنهوض بالمسلمين ليأخذوا دورهم الطبيعي في صناعة التاريخ البشري .

وشعوب الغرب غالبيتها منقادة للقوى المتنفذة ، التي تتبنى استخدام القوة في تعاملها مع العالم الإسلامي ، والتي تضع يدها على وسائل تأثير بارعة وإمكانات هائلة قادرة على تزوير الحقائق وتحويل الضحية إلى جلاد والمعتدي إلى ضحية ، وهناك أفراد وتيارات ومؤسسات في المنظومة الغربية ترى مخاطر ما يختاره ساسة واقتصاديون عند تعاملهم مع المسلمين ، فينتقدون ويحذرون ويتظاهرون ؛ تعبيراً عن رؤيتهم الإنسانية ، وحماية للعالم من صراع رهيب .

وغالبية شعوب العالم الإسلامي تشعر بالظلم الفظيع الذي توقعه قوى غربية على الإنسان المسلم ، وترى الدليل تلو الدليل على **السلوك النفعي** ، **النهبي** ، **العنفي** الذي تصطبغ به السياسة الغربية حيال العالم الإسلامي ، وهناك فئة ممثلة – غالباً – بأنظمة الحكم وبتيارات متغربة .. لا تقف عاجزة فتعذر ، ولكنها تسعى لتقييد وتصفية حركات التغيير والتحرر ، لأنه مطلوب منها أن تفعل ذلك .

والعجيب الغريب أن تصرّ قوى الاستغلال الغربية وأتباعها على منع محاولات فهم أسباب وبواعث المواجهة الساخنة ، ويتحسسون كثيراً من تقرير حقيقية كبرى ، وهي : إن على أصحاب القرار في الغرب أن يكفّوا عن التدخل السافر والخفي في شؤون المسلمين ، وأن يتوقفوا عن نهب ثرواتهم ، وأن يتخلوا عن سياسة حراسة التخلف والتجزئة التي فرضت على معظم أرجاء العالم الإسلامي من خارجه في الحقبة الاستعمارية .

ويرفع ساسة غربيون سيف الاتهام زاعمين : « إن الذين يبررون العنف والإرهاب بما يفعله ساسة غربيون وأعوانهم ، إنما يعلنون عن تأييدهم للظاهرة الإرهابية » وهم يريدون بذلك : إذا تكلم صاحب رأي فعليه أن يؤيد ما يصنعون ، أو يسكت ، فإذا رأى غير ما يرون قالوا كما قال فرعون من قبل : « **ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** » [غافر : ٢٩] !! .

ولا يخفى على لبيب أن في الغرب سياسيين ومفكرين ينفخون في نار الفتنة ، ويثيرون قضايا تستدعي الشحناء ، وأذكِّر ببعض الأمثلة :

١- **ريتشارد نيكسون** : الرئيس الأمريكي الأسبق ، يقول في كتابه « **الفرصة السانحة** » :

« إن الإسلام والغرب متضادان ، وإن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : (دار الإسلام) و (دار الحرب) حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، **وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب** ، وعلى الغرب أن يتحد مع الاتحاد السوفييتي (قبل تفككه) ليواجه هذا الخطر الداهم بسياسة واحدة » .

٢- **الكاردينال بول بوبار** : مساعد بابا الفاتيكان السابق ، ومسؤول المجلس الفاتيكاني للثقافة ، يقول في تصريح لصحيفة « الفيجارو » الفرنسية ، ونشرته جريدة « الشرق الأوسط » بتاريخ ١٩٩٩/١٠/٠١م :

« **إن الإسلام يشكل تحدياً لأوروبا وللغرب عموماً** ، وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكي يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم ؛ ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي ، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية ، وفي مهد المسيح يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد ، وعما إذا كان موقهم لم يكن مبرمجاً بشكل ما .. **إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دينٌ وثقافةٌ ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف ، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع** » .

٣- **جياني ديميكليس** : رئيس المجلس الوزاري الأوروبي . في مطلع التسعينات من القرن الماضي في مقابلة مع مجلة « **النيوزويك** » في ١٩٩٠/٠٧/٠٢م :

- **نيوزويك** : ما مبررات بقاء حلف الأطلنطي – الناتو – بعد زوال المواجهة بين الغرب الليبرالي والمعسكر الذي كان اشتراكيا ؟
- **جياني** : صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة ، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحل محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي .
- **نيوزويك** : وكيف يمكن تجنب تلك المواجهة المحتملة ؟
- **جياني** : ينبغي أن تحل أوروبا مشاكلها ، ليصبح النموذجُ الغربي أكثر جاذبية وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم ، **وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي ، فإن العالم سيصبح مكاناً في منتهى الخطورة** » .

هذه الأمثلة التي سقتها غيضٌ من فيض من الكتب والدراسات والتصريحات التي تنال من الإسلام والمسلمين ، وتستعدي الشعوب الغربية ، وتشحن النفوس بالكراهية والخوف والبغضاء ، وتقوم مراكز

ومؤسسات الدراسات الاستراتيجية – والتي انتشرت في أمريكا وأوروبا انتشار النار في الهشيم – بدور رهيب ، حيث تبثّ العداوة والبغضاء باسم البحث والدراسة التي ينهض بها فريق من المختصين ، ونضرب مثالاً على الدور المريب لهذه المراكز بمؤسسة « راند » :

تقرير مؤسسة راند !!

في عام ٢٠٠٤م نشرت مؤسسة (راند) تقريراً عن الشرق الأوسط في ٣٤٥ صفحة من القطع الكبير .. وقد كان له دويّ واسع في الأوساط الفكرية والسياسية .. ويرجع ذلك إلى :

- **مضمونه** (من حيث الشمول والتفاصيل)
- **رؤيته المستقبلية**
- **مكانة المؤسسة التي صدر عنها التقرير**
- **الجهة التي طلبت التقرير** : حيث كُتب على صفحة الغلاف (أُعد لحساب السلاح الجوي للولايات المتحدة) .

فما هو عنوان التقرير ؟

« **مستقبل البيئة الأمنية في الشرق الأوسط : النـــزاع ، والاستقرار ، والتغيير السياسي** » .

أما مؤسسة راند ؟ فالمعلومات المتاحة تصفها بأنها مركز للبحوث والتطوير مُمَول من الحكومة الأمريكية الفيدرالية ، لإجراء الدراسات والتحليلات ، ويضع جُلّ جهده في خدمة المؤسسة العسكرية .

ماذا يقول التقرير ؟

- يبدأ التقرير بتحديد المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط ، وهي :
  - **مواجهة الإرهاب .**
  - **التصدي لأسلحة الدمار الشامل .**
  - **الحفاظ على إمدادات وأسعار مستقرة للنفط .**
  - **تأمين استقرار نظم الحكم الصديقة .**
  - **دعم الديمقراطية وحقوق الإنسان .**

وبناء على توصيف « **المصالح** » يحدد التقرير « **التهديدات** » .

- احتمالات قوية وظاهرة للعدوان والمواجهة بين دول المنطقة بسبب التوترات الموجودة الآن والمتوقعة في المستقبل .
- انهيار عملية السلام (العربية–الإسرائيلية) !!
- انتشار أسلحة الدمار الشامل .
- خطر تصدير إرهاب الشرق الأوسط إلى العالم .
- القلاقل الداخلية المتوقعة نتيجة تغييرات فكرية واجتماعية وسكانية واقتصادية وسياسية تشهدها المنطقة .

ويقول التقرير صراحة :

إن « عدم الاستقرار السياسي في الشرق الأوسط يمكن أن تكون له عواقب وخيمة بالنسبة للولايات المتحدة . فقد لعب الشرق الأوسط – منذ هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١م – دوراً أكثر بروزاً في السياسة الأمريكية من أي وقت مضى ، فالولايات المتحدة تعتمد على شركاء شرق أوسطيين كإسرائيل والعربية السعودية وقطر ومصر وغيرها في محاربة الإرهاب ، ووقف انتشار أسلحة الدمار الشامل من جانب الدول المارقة .. وبالنظر إلى اعتماد الغرب على نفط الشرق الأوسط فإن اهتزاز الاستقرار السياسي في المنطقة يمكن أن يضر بالاقتصادات في أنحاء العالم » .

وبعد تحديد « المصالح » و « التهديدات » فإن واضعي التقرير يرون بوضوح أن الاتجاهات التي تبرز في المنطقة ستزيد من احتمال زعزعة الاستقرار ، ولمواجهة التهديدات فإنهم ينصحون بالآتي :

- **لبرلة المنطقة** : إضفاء طابع متحرر وببطء .
- **دمقرطة المنطقة** : إشاعة الديمقراطية .

ويبدي التقرير تخوفاً كبيراً إذا وقعت تغييرات غير منضبطة أمريكياً !! من ذلك :

- **الخوف من بروز قيادات جديدة تشعر بضرورة تبني سياسات شعبية ، والتخلي عن السياسات التي يرفضها الحس الشعبي** ، مثل (دعم تنازلات عربية لإسرائيل في المفاوضات – والتعاون مع أمريكا لمواجهة الإرهاب ..)
- **الخوف من التناقض بين « الإصلاح الليبرالي الديمقراطي » و « مصالح حكام المنطقة »** .
- **الخوف من تطوير وانتشار أسلحة الدمار الشامل** ، لأنه قد يستخدم ضد إسرائيل والأمريكيين في المنطقة ، وربما شكل تهديداً لأمريكا في عقر دارها .
- **الخوف على أمن إسرائيل** .

ويخصص التقرير مساحات واسعة لدراسة دول معينة واحتمالات التغيير فيها ، ونشير هنا إلى الحالة السعودية ؛ إذ يؤكد التقرير على الآتي :

- **الوضع السياسي** في السعودية هش .
- **تحديد العلاقة مع أمريكا فيها خصام كبير بين الحكام والمحكومين ؟**
- **الإسلاميون السعوديون** موجودون في الدولة والمجتمع ولهم رؤيتهم لما يجري في المنطقة .

وهذا الوضع يفرض على أمريكا :

- **الاستعداد للمفاجآت .**
- **العمل على تغيير البنية الثقافية .**
- **عدم إهمال استخدام القوة لإحداث زلازل فكرية وتوليد رؤى تفاهمية .**
- **الإسراع في إعادة إعمار العراق .**
- **السعي إلى حلٍّ ما للصراع مع إسرائيل .**

وبعد :

فهل بعد هذا المثل الصارخ في الإثارة والعدوانية ، واستباحة الأرض ، والثروات ، والثقافة ، والدين ، والقيم ... يوجد من يشك في أن قوى التسلط الغربي هي التي تثير الزوابع ، وتفجر العلاقات ، وتعمل على تصوير الإسلام والمسلمين بشكل مخيف ومقزز ، وتصر على أن يكون الإسلام عدواً لكي تبقى الشعوب الغربية مؤيدة لسياسات تلك القوى ، ومقتنعة بضرورة تطوير آلات الدمار التقليدية والشاملة ، وبذلك تزدهر صناعة الأسلحة ، والتي لا تعني إلا مزيداً من الفتك والدمار ؟ .

وعلى الرغم من قتامة صورة الغرب في هذه المرحلة لدى غالبية المسلمين إلا أن علينا أن نشير إلى وجود ضمائر حرة وأصوات منصفة ؛ تدين العدوان ، وتنادي بضرورة تسمية الأمور بأسمائها ، ومن هؤلاء السيدة الباحثة « سوزان نيكول » التي كتبت موضوعاً وزعته عبر الإنترنيت في ٢٠٠٥/٠٧/١٣م وتقول فيه :

« الأمريكيون يساعدون بلادهم ضد الإرهاب لو عرفوا الجواب الحقيقي عن السؤال : (لماذا يكرهوننا ؟) . إن العرب والمسلمين يقولون للغرب باستمرار السبب الحقيقي ، إلا أن الغرب لا يسمع . يجب علينا الاعتراف بتحيّزنا على امتداد نصف قرن ضد العرب والشعوب الإسلامية الأخرى ، لقد أوجدنا سبب عدائهم لنا ، فنحن ، وليسوا هم ، الذين بدأنا صراع الحضارات المريع الذي سنواجهه في الجيل القادم أو أكثر . »

ونحن المسلمين علينا أن نرفع أصواتنا محذرين من نشر ثقافة الشحناء والبغضاء ، وعلينا أن نأخذ على أيدي من يسيؤون الفهم والعمل ، وأن نمد أيدينا إلى المنصفين والمعتدلين من الغربيين ، وأن نبني معهم جسور التعارف والتعاون على ما فيه خير الإنسان في كل مكان ، وليكن شعارنا قول الله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾